حوليات آداب عين شمس المجلد 53 (عدد يوليو – سبتمبر 2025)
http://www.aafu.journals.ekb.eg
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

مِن أسرار وحدة السِّياق في سورة عَبَسَ

د. محمد بن صالح العلياني*

أستاذ مساعد بقسم اللغةالعربية، تخصص (البلاغة و النقد)، كلية الآداب،جامعة بيشة، المملكة العربية السعودية.
malalyani@ub.eu.sa

تاريخ الاستلام: 2025/05/13
تاريخ قبول البحث: 2025/08/01
تاريخ النشر: 2025/09/30

المستخلص:

يَهدف هذا البحث إلى معرفة أسرار النَّظم القرآني في سورة عَبَسَ من خلال النَّظر إلى وحدة سياقها عن طريق تلمس التّاسب بين أجزاء آياتها،والغرض الذي سيقت من أجله، والموضوع الذي تلاءمت أجزاؤها فيه من المقدمة إلى الخاتمة، وقد اعتمدَ البحثُ المنهج الوصفي آخذًا من أدواته التّحليل بتتبع آراء المفسرين في الآيات الكريمات، والتعليق عليها وَفْقَ المذكور في ثنايا الإعجاز والبلاغة، وقد انتظمَالبحثُ فيه في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة محاور، وخاتمة ذُكِرَ فيها أهم ما تَوصَّلَ إليه البحث من نتائجَ، منها: أنّ تلاؤم سورة عَبَسَ كانَ من أولها إلى آخرها، وتماسكها نحو موضوعها وقضيتها الكبرى هو تقريرٌ وإثباتٌلليوم الآخر، وأنَّ التناسب بين مقاطع السُّورة حول موضوعها مقطعٌيُهيئ للذي يليه في ترابط معنوي تظهره أساليب البيان من وصل وفصل، وقد غَلَبَ على السُّورة في مقدمتها الأسلوب الخبري في تقرير الأحداث وتأكيدها، وكان لإيجاز مقاطعها وتدفقها قوة تتلاءم مع موضوع السُّورة.

الكلمات المفتاحية:السِّياق– التتابع– النّظم– سورة عَبَسَ.

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب – جامعة عين شمس 2025.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصّلاة والسّلام على سيد الأنبياء والمرسلين محمد بن عبد الله الصّادق الأمين، وعلى آلهِ وصحبهِ أجمعين، وبعد: فهذا بحثٌ يتعلق بإظهار إعجاز القرآن في بلاغته ونظمه من خلال النّظر إلى سورة عَبَسَ في وحدتها الموضوعية، وانتظام أجزائها حول محورها الرئيس؛ ولاشَكَّ أن لعلماء التفسير والإعجاز البلاغيالفضل الكبير في الحديث عن أغراض السُّور وموضوعاتها دونَ بسطٍأو تفصيلٍ يستجلي دقائق علم المناسبة وأسرارها بين الآيات حول موضوع السُّورة، بما يوضح هذه الوحدة؛ ولذا جاء هذاالبحثلِيُسهمَ في استجلاء أسرار النّظم في وحدة السِّياق من خلال هذه السُّورة المباركة (سورة عَبَسَ).

ولا أعلمُ– في حدود اطلاعي وبحثي– دراسة متصلة بهذا الموضوع إلا لمحات وإشارات حول غرضها الرئيس، دون التّطرُّق للتفصيل في أسرار النّظم والتحامه حول هذا الغرض المبحوث، وهو ما يُظهرُ بجلاء عظمة النظم القرآني من خلال وحدة السِّياق، والسُّورة قد دُرسَت من الناحية البلاغية، ولكنها دراسات جزئية لأبواب البلاغة، دون التفات للنظرة الكلية لمسار السُّورة من خلال وحدتها في السِّياق.

ويَهدُفُ البحث إلى معرفة أسرار النظم القرآني في سورة عَبَسَ من خلال النظر إلى وحدة سياقها عن طريق تلمس التّناسب بين أجزاء آياتهاوالغرض الذي سيقت من أجله، والتعرُّف إلى الموضوع الذي تلاءمت أجزاؤها فيه من المقدمة إلى الخاتمة.

وقد اعتمدَ البحثُ المنهج الوصفي آخذًا من أدواته التّحليل، وقد اقتضت طبيعته أن تكونَ خطته –بعد المقدمة– كالآتي:

- التمهيدعن تعريف السِّياق ومفهوم وحدته، وعن الغرض الرئيس للسورة
- المحور الأول: وحدة السِّياق من خلال التلاؤم بين مقاطع السُّورة حول موضوعها ومحورها الرئيس.
- المحور الثاني: التلاؤم والمناسبة ما بين مطلع السُّورة وموضوعها.
- المحور الثالث: التلاؤم والتناسب ما بين مطلع السُّورة وخاتمتها حول الغرض الرئيس للسورة.

ثم خاتمة البحث ولُخِّصَ فيها أهم النتائج التي توصلَ إليها، بعدها قائمة بالمصادر والمراجع التي اعتمدَ عليها البحث. سائلًا الله تعالى التّوفيق والسّداد والسّلامة من الزّلل.

التمهيد:

أوّلًا– تعريف السِّياق ومفهوم وحدته في سورة عَبَسَ:

السِّياق في اللُّغة يدلُّ على التتابع والاتصال، يُقالُ:"تَسَاوَقتِ الإبلُ،أي: تتابعت"[1]،وجاء في المعجم الوسيط: "سياقُ الكلام تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه في مراقي المباني والمعاني"[2]، والمعنى اللغوي الذي يُشير إلى التتابع والاتصال فيه دلالة المعنى الاصطلاحي، فيُعرَّفُالسِّياق اصطلاحًا بأنّه: "تتابع المعاني وانتظامها في سلك الألفاظ القرآنية لتبلغ غايتها الموضوعية في بيان المعنى المقصود، دون انقطاع أو انفصال"[3] فالسِّياق يبين اتصال الكلام وتضامه وتتابعه في سلك واحد حول غَرَضِه، وهو ما ينطبق في غرض (سورة عَبَسَ) الرئيس، حيث يتسلسل الكلام ويتدرج من أول آياتها إلى ختامها دون انقطاع، فهو ارتباط الكلام بسابقه ولاحقه ارتباطًا تُحققه الوحدة حول الغرض الرئيس للسورة دون انفصال، بل نجد عظمة البيان في الانتقال والتدرج والاتحاد حول الغرض الذي سيق من أجلهالكلام، وهذه الوحدة معناها: "أن يكون العمل الفنيمتماسكًا إلى أبعد درجات التماسك، بحيث إنَّ كلّ جزئية تفضي إلى التي تليها، ولا يمكن حذف أي جزئية واحدة؛ لأنّ العمل الفني يستغني عنها أو إضافة جزئية أخرى يفتقر إليها"[4]، والبحث في وحدة السِّياق يُرجحها كون آيات الكتاب الحكيم جاء ترتيبها توقيفيًّا، ومن هنا سنقفُ على أسرار هذا الترتيب من خلال وحدة السِّياق، يقول الإمام الزركشي:"وأما ما يتعلق بترتيبه؛ فأما الآيات في كل سورة، ووضع البسملة أوائلها فترتيب توقيفي بلا شك ولا خلاف فيه، ولهذا لا يجوز تعكيسها"[5]، وهو ما ذكره السّيوطي في كتابه الإتقان[6].

ثانيًا– غرض السُّورة الرئيس:

إنَّ المتأمل في السُّورة الكريمة وعلاقاتها بالسّور السابقة لها واللاحقة يدرك أنّ موضوعها الرئيس هو اليوم الآخر، والذي يستحق أن ينذر به، فوحدة سياقها تتحدث عن يوم القيامة وإثباته، وعن الكافر ودلائل القدرة التي توضح الإيجاد والعودة بعد الموت إلى الله في يوم البعث والنشور،وما كان من مقبلٍ على الدعوة جاء يسعى وهو يخشى، ومعرض عن دعوة الرسول لتكذيبه باليوم الآخر وإنكاره، ثم ما كان من اختتام السُّورة بالحديث عن القيامة والمصير المنتظر للمعرض والمؤمن، وقد ألمح إلى هذا الغرض الإمام البقاعي في كتابه نظم الدرر حيث يقول: "مقصدها شرح إنما أنت منذر من يخشاها"[7]. ويرى الباحث أنها إلماحات موفقة توصل إلى فهم عمق المناسبات بين آيات السُّورة حول هذا الغرض وإلى ذلك أشار أبو حيان الأندلسي في البحر المحيط في حديثه عن مناسبة السُّورة لما قبلها (سورة النازعات) لما ذكر تعالى فيها:(إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخۡشَىٰهَا) ذكر في هذه من ينفعه الإنذار ومن لم ينفعه الإنذار[8].

المحور الأول: وحدة السِّياق من خلال التلاؤم بين مقاطع السُّورة.

سورة عَبَسَ هي سورة مكيَّة بإجماع المفسرين[9]، وسُميّت سورة عَبَسَ، وسورة السفرة، والصاخّة، وتسمى سورة الأعمى، وقد عُدّتِ في المرتبة الرابعة والعشرين من حيث نزول السور القرآنية، نزلت بعد سورة النجم وقبل سورة القدر، وعدد آياتها عند أهل المدينة ومكة والكوفة اثنتان وأربعون، وعند أهل البصرة إحدى وأربعون، وعند أهل الشام أربعون[10].

نزلتْ سورة عَبَسَ في ابن أم مكتوم؛ وذلك أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يناجي عتبة بن ربيعه وأبا جهل بن هشام وعباس بن عبد المطلب يدعوهم إلى الله تعالى ويرجو إسلامهم، فقام ابن أم مكتوم وقال: يارسول الله، علّمني كما علمك الله، وجعل يناديه ويكرّر النداء والرسول صلى الله عليه وسلم مقبل على غيره من الذين يكلمهم، فأنزل الله تعالى هذه الآيات، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم –بعد ذلك– يُكرّمُه، وإذا رآهقال:"مرحبًا بمن عاتبني فيه ربي"[11].

المقطع الأول:عتاب الله تعالى لنبيه في تصدّيه للمشركين، وتركه للمقبل إلى الدعوة من الآية (1 إلى 16).

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦ .

إنَّ المتأملَ في هذا المقطع ومناسبته لسياق السُّورة الكريمة في اتحادها حول موضوع اليوم الآخر، يجد حركة المعنى تدور حول عتاب النبي صلى الله عليه وسلم في انشغاله عن الأعمى المقبل إليه، وتصديه لصناديد قريش يدعوهم إلى الله، ويخوفهم باليوم الآخر وهم ينكرونه، وما كان في هذا المقطع من اهتمام بهذا المقبل، ورفع لمكانته حيث كان " المراد الأعظم تزكية القابل للخشية بالتخويف بالقيامة"[12].

هنا نلحظ التحام المعاني حول من جاء يسعى خشية من الله سيتقبل الدعوة إلى الله ويخشى اليوم الآخر، ومن أعرض عن الدعوة، بسبب إنكار البعث واليوم الآخر، "وهو الأصل الأصيل في تصميم المشركين على وجوب الإعراض عن دعوة القرآن توهما منهم بأنه يدعو إلى محال"[13]، وتوجيه الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم بأنه كان الأولى صرف الدعوة لمن يتقبل ويصدق باليوم الآخر، وأن يتولّى عن المعرض المستغني المكذب، حيث كان حديث النبيصلى الله عليه وسلم ودعوته للقوم المعرضين يخوفهم باليوم الآخر، فجاء ابن أم مكتوم ليقطع الحديث بينهم، ويقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله ليلتفت إليه ويتلقى منه الدعوة، وهذه المحاور الثلاثة في هذا المقطع: الرسول الداعي والمتلقي المستغني، والمتلقي المقبل وهو يخشى، وبيان مكانته عند الله، وانحطاط مكانة زعماء قريش المستغنين، وتوجيه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في عتاب لطيف حيث بدأت السُّورة الكريمة بالعتاب عبر الأسلوب الخبري بالاستهلال بفعلين ماضيين موصولين بحرف العطف الواو والمسند إليهما واحد عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ وفي احتمال الفعلين بضمير لا معاد له في الكلام فيه تشويق لما سيورد بعدهما"[14]، وتلطف في مخاطبة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم فلم يقل:"عَبَسَتَ وتوليت"، والفعلان يشعران بأن المحكي حادثٌ عظيم"[15]، وهنا نجد براعة الاستهلال القوية الملفتة لما سيأتي بعد من الاهتمام بأمر الأعمى في قوله تعالى:(أن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ) حيث الجمل الخبرية تتوالى في تقرير هذا الحدث، وتبيَّن أنّ سبب العبوس والتّولّي كانفي مجيء الأعمى وقت دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم لصناديد قريش يرجو إسلامهم، لعله يسلّم بإسلامهم من يتبعهم، فيعلي الله بهم الدين، وما كان من ترجيح الالتفات إليهم في تلك اللحظة، حتى لا تفوت هذه الفرصة في اجتهاده صلى الله عليه وسلم، لكن الله قد علم استكبارهم وجحودهم، وعدم الفائدة من دعوتهم، وأن من يرجى منه الخير أولى في الالتفات له والتصدي "فصيغة الخبر مستعملة في العتاب على الغفلة عن المقصود الذي تضمنه الخبر وهو اقتصار النبي صلى الله عليه وسلم على الاعتناء بالحرص على تبليغ الدعوة إلى من يرجو منه قبولها، مع الذهول

عن التأمل فيما يقارن ذلك من تعليم من يرغب في علم الدين ممن آمن "[16]، فلم يكن الذي حصل منه صلى الله عليه وسلم ذنبًا أو تقصيرًا بل كان انشغالًاعن المقصود الأسمى الذي يريده الله منه حتى يكون توجيها للدعوة ولمسارها، وتصحيحا لذلك، وانتقل النظم من أسلوب الغيبة إلى أسلوب الخطاب في قوله تعالى:(وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ)، ليُفصح عن عودة الضمير في الفعلين السابقين –عبَسوتولى– إليه صلى الله عليه وسلم، ولمّا كان صدور ذلك من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم لم يشأِ الله أن يفاتحه بما يتبادر منه أنه المقصود بالكلام، فوجهه إليه على أسلوب الغيبة ليكونَ أول ما يقرع سمعه باعثًا على أن يترقّب المعنى من ضمير الغائب فلا يفاجئه العتاب، وهذا تلطُّف من الله برسوله صلى الله عليه وسلم ليقع العتاب في نفسه مدرجًا"[17]، وقال وما يُدريك بالمضارع دون الماضي لِيُبَيِّنَ عدم علمه في هذه الحال وفي المستقبل فجاء توجيه الوحي له هنا، فبلاغة الوصل تُبيِّن الانتقال والتدرج والالتفات إلى الخطاب؛ ليبيِّن ما فاته صلى الله عليه وسلم عبر الاستفهام الذي جاء للنفي (وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ)أي: ما يجعلك عالمًا بحال هذا الأعمى أنه يريد التّزكي أو التذكّر فتنفعه الذكرى، والتزكّي التّطهُّر من الذنب، والتذكّر الاتعاظ والاعتبار[18].

وهنا احتياطٌ لشمول حال هذا المقبل على أي الوجهين، ويُلمسمن ذلك اهتمام بالغ به ورفعة لمنزلته عند الله، "وفي الآية تعريض وإشعار بأن من تصدى صلى الله عليه وسلم لتزكيتهم وتذكيرهم من الكفرة لايرجى منهم التزكي والتذكر أصلا"[19]، وفي ذلك تزكية لابن أم مكتوم في إقباله وتصديقه، وهنا لفت الوحي النبي الكريم إلى عدم علمه بما كان سيحدثه في قلب هذا الأعمى من أثر عظيم، يدلُّ على ذلك حرف الفاء السببية في قوله تعالى:ئيبمتنتئىأي أن استجابته للخير وقبوله للدعوة سيكون سريعا، وهذا مما سيزيد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم ندمًا بسبب توليه عنه.

ثم ينتقل الحديث إلى المتلقي المستغني، وهنا نجد النظم يستخدم أسلوب الفصل، وقد كان الحديث عن المتلقي المقبل، والداعي الرسول الكريم يغلب عليه الوصل بين الجمل وكأنها توحي بأن الأجدر أن يكون الوصل بين رسول الله وهذا الأعمى هو الأولى.

(أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧)مازالت الآيات هنا في سياق العتاب، وقد بدأت بـــ(أما) التفصيلية، وهو التفاتٌ للحديث عن حال المتلقي الآخر، حيث بدأ بالاسم الموصول وفيه احتقار لهذا الصنف، وقال تعالى: (ٱسۡتَغۡنَىٰ)والمراد به" مَن عدَّ نفسه غنيًّا عن هدْيك بأن أعرض عن قبوله"[20]، (فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ) السِّياق تزيد نبرته بتقديم المسند إليه، وتقديم الجار والمجرور على الفعل، لإفادة الاختصاص"ومعناه إنكار التصدي أي مثلك خصوصًا لا ينبغي له أن يتصدّى للغني"[21].

وقد فُهم من الفعل (تَصَدَّى) مدى الحرص، وإرهاق النفس في الاهتمام البالغ في دعوة هذا المستغني، فجاءت الجملة التالية معترضة بين المقابلة بين الصنفين لتجيب (وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ)، الواو هنا حالية أي: أنت تُرهق نفسك في التّصدي لمن استغنى في حال أنك لا حرج عليك عندنا ولا لومَ في ألّا يزكى، وفي ذلك طمأنة للرسول صلى الله عليه وسلم بعد وطأة المخاطبة في قوله تعالى:(فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ)، وقبل أن يَصِل النّظم للحديث عن المتلقي المقبل في هذه المقابلة خلقت هذه الجملة المسارعة إلى تنزيل حدة المعاتبة وتسهيل الأمر في نفس الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، بأنْ ليس عليه حرج في استجابة المعرضين، فهم في شأن وحال آخر والرسول ودعوته في شأن لا يرونه من اهتمامهم، فهم بذلك لا

يستحقون مثل هذا الجهد، وهو حامل لأعظم دعوة على وجه الأرض لا تليق بهذه الفئة التي هذا حالها، أن يستميت النبي في التصدي لها، ثم يلتفت النظم مرة أخرى للمتلقي المقبل بعد أن ذكر المتلقي المستغني، لتتم المقابلة بين الحالتين، فعطف بحرف العطف الواو الذي يقتضي العطف به المغايرة،(وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّى)، قابلت (أمّا) التفصيلية هنا (أمّا) في تفصيل حال المعرضين، و"مَن" الموصولة التي جاءت لترفع من مكانة ابن أم مكتوم مقابل "مَن" الموصولة التي تحطّ من مكانة زعماء المشركين، والفعل –جاء– يأتي للأمر الصعب؛ لبيان تكبُّد هذا الأعمى مخاطر الطريق، ليصل إلى تلقي الدعوة من النبي صلى الله عليه وسلم، والفعل (يَسۡعَىٰ)يُبيّن شدة تلهُّفه للدعوة،ثم بيان حاله أنه يخشى متقلّب قلبه، وأولئك القوم قلوبهم خاوية شاردة عن الدعوة، بسبب جحودهم لليوم الآخر، وفي عقد هذه المقابلة في سياق العتاب فيه مزيد توجيه للنبي الكريم في تبصيره لما بين الحالتين من اختلاف، وكيف كان موقفه منهماف(أَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ) (فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ)– وهذا يزيده لفتا قويا يثبت في نفسه، ويكون عبرة لكل من تصدر الدعوة إلى اللهثم يختم المقطع بقوله تعالى:(كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ١٢ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ١٣ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦)، حيثلخّصت كلمة (كَلَّا)العلاقة بما سبقها من جمل تتابعت في العتاب، وهي بمعنى الردع والزجر، جاءت مفصولة عمّا سبقها لم تعطف؛ لأنها إنشائية والجملة السابقة خبرية مستقلة بذاتها، والفصل لكمال الانقطاع، وهذا الفصل يعبِّر عن التّوقف برهة، لنتأمل في كلمة الرّدع والزّجر التي تقرر إبطال ما قبلها، وتوجز بأن هذا الموقف الحاصل لا ينبغي إذ المعنى "ما الأمر كما فعلت يا محمد، مِن أن تعْبس في وجه من جاءك يسعى وهو يخشى، وتتصدى لمن استغنى"[22].

ولما أثارت كلمة الإبطال وما سبقها من عتاب التساؤل في نفس النبي الكريم–صلى الله عليه وسلم–في أمر الدعوة، كيف ستكون لهؤلاء المعرضين وأمثالهم، جاء الفصل عبر الاستئناف البياني– (إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ)، لتُجيب عن هذا التساؤل: أي ما عليك إلا التّذكير، وليس عليك الهداية والإلزام بدليل قوله تعالى: (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ)– أي مَن شاء استجاب له وصدّق به، واختاره من مثل المصدِّق باليوم الآخر، وهو الأعمى الذي تنفعه الذكرى، وليس من أعرض عنه، وهو المكذب للقرآن واليوم الآخر من صناديد قريش المستغنين، وجملة (فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ)، جاءت معترضة بين قوله تعالى:(تَذۡكِرَةٞ) و(صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ)تلفِت إلى أن موعظة القرآن نافذة نافعة لكل من جرَّد نفسه وأزاحها عن الكبرياء وأراد الحقيقة، ثم عمق الختام ببيان عظمة القرآن وعلو منزلته وحفظه، ومن يحمله من الملائكة المطهرين وأنه لا يضيره تكذيب المعرضين، وللطاهر بن عاشور لفتة في اتصال الكلام بعضه ببعض في قوله تعالى:(كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ)حيث يقول:"يجوز عندي أن يكون استئنافًا ابتدائيًا موجهًا إلى من كان النبي –صلى الله عليه وسلم– يدعوه قبيل نزول السُّورة فإنه كان يعرض القرآن على الوليد بن المغيرة ومن معه، وكانوا لا يستجيبون إلى ما دعاهم، ولا يصدِّقون بالبعث فتكون (كَلَّا)إبطالًا لما نعتوا به القرآن من أنه أساطير الأولين فيكون ضمير (إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ)عائدًا إلى الآيات التي قرأها النبي صلى الله عليه وسلم عليهم في ذلك المجلس ثم أعيد عليها الضمير بالتذكير للتنبيه على أن المراد آيات القرآن، ويؤيِّد هذا الوجه قوله تعالى عقبه: (قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ)، حيث ساق لهم أدلة إثبات البعث"[23].

ومما سبَق يتضح تلازم المعاني حول قضية اليوم الآخر، والبعث الذي جعل الكفار يستغنون ولا يقبلون؛ لتكذيبهم به، والمقبل جاء يسعى وهو يخشى؛ لأنه مؤمن بهذا اليوم، ولذلك سيأتي المقطع الثاني يركز على قضية إثبات هذا اليوم وأن الله يبعث الناس بعد موتهم.

المقطع الثاني: الدعاء على الكافرين المنكرين للبعث والرد عليهم بأدلة إثباته: من الآية (17إلى 32).

قال تعالى: (١٦ قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ ١٧ مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ ١٨ مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقۡضِ مَآ أَمَرَهُۥ ٢٣ فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ٢٤ أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥ ثُمَّ شَقَقۡنَا ٱلۡأَرۡضَ شَقّٗا ٢٦ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١ مَّتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢).

جاءت الجملة الأولى من المقطع:(قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ)مفصولة عما سبقها، فهي إنشائية معنًى، والتي قبلها خبرية، والفصل لكمال الانقطاع، وهذا الفصل جاء موحيًا بانفصال حال هذا الكافر، وإبعاده والتشنيع عليه بهلاكهِ، فالجملة فيها دعاء بالهلاك على الإنسان الكافر، "والدعاء بالسُّوء من الله تعالى مستعمل في التحقير والتهديد لظهور أن حقيقة الدعاء لا تناسب الإلهية؛ لأنّ الله هو الذي يتوجه له بالدعاء"[24].

تبدأ قوة التّشنيع في البناء لما لم يُسمَّ فاعله في الفعل(قُتِلَ) ، وكأنّ الكونَ كلَّه يضيق ذرعًا بالكافر، ودمه في الأرض مستباح، وفصل الجملة وشدتها في قمة التّعجب من حاله، كيف يكفر ويعرض؟ وقال تعالى: (قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ)دعاء على اسم الجنس وهو عموم يراد به الخصوص، فالسِّياق يرجح أنه ينصرف إلى الكافر المنكر للبعث، وما سيأتي من أدلة إثبات البعث تؤكد ذلك، وعلاقة هذا المقطع بسابقه يرتبط باللفت إلى المعرض المستغني الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتصدى له، إن هذا المقطع يلتفت إليهوإلى كل كافر منكر للبعث، وفيه إشارة دقيقة إلى أن هذه المجموعة من كفار قريش التي تصدّى لها الرسول لا أمل في إسلامهم، وأنهم سيموتون على الكفر في الغالب، وهذا ما حصل، وفي ذلك تيئيس من حالهم،وهذا الأسلوب بالدعاء بالقتل والتّعجيب من الكفر "لا ترى أغلظ منه، ولا أخشن مسًّا، ولا أدلّ على سخط، ولا أبعد شوطًا في المذمّة مع تقارب طرفيه، ولا أجمع للأئمة على قصر متنه ثم أخذ في وصف حاله من ابتداء حدوثه"[25].

إنَّ غلظة مقدمة هذا المقطع ترتدّ إلى موقف الكفار المستغنين بسبب إنكارهم للبعث وصلفهم، وتكبُّرهم مع حفاوة الرسول بهم، وتصدّيه لهم، وتولّيه عن ابن أم مكتوم، بل إنَّ شدة التّعجيب تنصرف إلى التكذيب بالساعة، فهو الأصل الأصيل في إعراضهم وكفرهم، ثم تلحظ قمّة الغضب في بلاغة النظم في تتابع الجمل مفصولة **(قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ)**، حيث فُصِلت جملة(مَآ أَكۡفَرَهُۥ) ولم تُعطف لشبه كمال الاتصال، لِما أثارته جملة الدعاء بالقتل على الإنسان في نفس المتلقي من السُّؤال عن سبب هذا الدعاء، وكيف استحق كل هذا السُّخط ومصير الهلاك والتنكيل، فجاء الجواب في صيغة التعجب (مَآ أَكۡفَرَهُۥ)ليبيّن السبب العظيم وهو الكفر مع وضوح نعم الخالق وأدلة قدرته، فكان الفصل معمِّقًا صورة السخط والغضب والإنكار والتنفير من حال هذا الصنف الخاسر، وليستمر السِّياق في تحقير شأن الكافرين المستغنين في قوله تعالى:(مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ)، حيث جاءت الجملة مفصولة بالاستفهام لتقرير حقيقة الخلق، وفيه التفات إلى الكافر المتكبِّر المستغني من أنه خُلق من شيء صغير أوجده الله تعالى يَكاد يكون من العدم، ومَن أوجده بهذه القدرة المعجزة قادرٌ على

إعادة الخلق؛ فالجملة بيان وتوضيح لجملة الدعاء والتعجب، وقد شرعت في ذكر الدليل الأول على إبطال إنكارهم للبعث، وبلاغة الفصل أفادت الوصول إلى الدّليل بأوجز عبارة في دفقات سريعة تُلامس النّفس البشرية، وحال المخاطب المنكر في بداية الدعوة، والفصل لكمال الاتصال، وهذا الاستفهام يلفت عقل المنكر إلى إحضار صورة الجواب في ذهنه، حتى إذا جاء الجواب استقر في نفسه، ثم يستمر النظم في هذه الدفقات السريعة الموجزة بما تحمل من دلالات كثيرة في قوله تعالى:(مِن نُّطۡفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ)، حيث جاء الجواب سريعًا لفصل تقرير الكافر المنكر بالإجابة في نفسه عند ورود الاستفهام، ثم لما جاء الجواب سريعًا مباشرًا تأكد في نفسه وهو يحسّه ويعلمُه، والنّظم ركّز على مفردة الخلق فذكرها في الاستفهام والسؤال ثم أعاد ذكرها في الجواب "لزيادة التنبيه على دقة ذلك الخلق البديع"[26].

وجاء الفعل (فَقَدَّرَهُۥ) معطوفًا بـــ(الفاء) التي أفادت التّعقيب والتّرتيب بلا تراخٍ، والمقصود من التقدير "إيجاد الشيء على مقدار مضبوط منظم"[27]. إنّ الفاء العاطفة هنا تنقلنا في إيجاز واختصار سريع يطوي لنا مراحل خَلق الإنسان بعد النطفة إلى علقة ثم إلى مضغة حتى تكتمل أحوال خلقه، وهو ما يلائم سياق السورة في إثبات الحياة بعد الموت للمنكرين وهم في إنكار وكفر، يحتاجون في بداية الدعوة إلى هذا الإيجاز الذي يوصلهم إلى الحقيقة الملامسة لواقعهم دون التّفصيل في مراحل الخلق"وفرَّع على الفعل (خَلَقَهُۥ)والفعل (فَقَدَّرَهُۥ)وهذا التّفريع وما عُطف عليه إدماج للامتنان في خلال الاستدلال"[28].

ومازال السِّياق مستمرًّا في إبراز المنّة الإلهيّة في خلْق الإنسان، وتسهيل ولادته وخروجه إلى الحياة في قوله تعالى:(ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ)و (ثُمَّ)حرف عطف يفيد التراخي والترتيب، حيث أفاد أنه بعد مراحل الخلق التي تستمر شهورًا في بطن أمه، عند اكتماله ييسر الله سبيل خروجه، والمفسرون على اختلاف في تفسير السبيل، فيرونه بمعنى: الطّريق إلى الهداية، ومنهم من يرجح أن المقصود تيسير خروجه من بطن أمه[29]، وهو ما يرجحه السِّياق هنا، فالحديث عن الإيجاد والخلق، ومنّة الله في العناية بهذا المخلوق حتى في خروجه من بطن أمه يقرّر ما يلامس عقل وقلب المنكر للبعث والإيجاد بعد الموت، وإلى ذلك مال الإمام الطبري حيث يقول: "لأنّه أشبههما بظاهر الآية، وذلك أنّ الخبر من الله قبلها وبعدها عن صفته خلقه، وتدبير جسمه، وتصريفه إياه في الأحوال، فالأولى أن يكون أوسط ذلك نظير ما قبله وبعده"[30].

وكان العطف بـــ(ثُمَّ)هو المناسب، حيث كان الخلق، فالتقدير: ثم بعد ذلك بفترة زمنية تيسير السّبيل، وكل ذلك إظهار للقدرة والامتنان،وبتقديم كلمة السبيل على العامل للتأكيد، وتقوية تيسير الله خروج هذا المخلوق إلى الحياة، وهذه قدرة الموجد، فلا يُعجزه البعث بعد الموت،فهذا خارج من بطن أمه للحياة، وذلك خارج من باطن الأرض للجزاء والحساب،وهو ما تبيّنه الآيات(ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقۡبَرَهُۥ ٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ)، حيث مازالت الآيات في سياق تعداد نعم المولى على الإنسان حتى عند خروجه من الحياة، وفي ذلك إثبات للبعث بعد الموت، وكان ذلك عن طريق الجمل الموصولة بـــ "ثم والفاء"، وهي جمل خبرية تقرِّر هذه الحقائق وتثبتها، وقد جاء الوصل (ثُمَّ)، وهي للترتيب والتراخي الزمني، فبعد ولادة الإنسان في الحياة، ثم تعميره فيها هذه المدة يحين أجله فينتقل إلى الحياة الآخرة، وقد طُوي ذكر كل ذلك للإيجاز وهي تخاطب الجاحدين المنكرين في دفقات سريعة مركزة، تلفت العقل في إثبات هذه الحقائق، وهو الأنسب في هذا المقام، واستخدمت "الفاء" في قوله تعالى: (فَأَقۡبَرَهُۥ)للتّعقيب والتّرتيب، حيث يُدفن الميت بعد موته دون مهلة، ثم يأتي قوله

تعالى:(فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ)ليلفتَ إلى دليلٍ ثانٍ لذلك المنكر للبعث نلحظ من خلاله التسلسل والتتابع في سياق الإثبات، و"الفاء" هنا للتفريع، ويكون الكلام مفرعًاعلى قوله تعالى: (مَآ أَكۡفَرَهُۥ)فيكون هذا النّظر مما يبطِل ويزيل شدة كفر الإنسان"[31].

وهنا نلحظ ربط "الفاء" بالكلام السابق، وهي الفاء التي تدلّ على كلام محذوف وهو الشرط وفعله بتقدير –إذا أراد هذا الإنسان الكافر أن يُذهب عن نفسه الكفر وإنكار البعث "فلينظر إلى طعامه"، ثم نلحظ التصريح بذكر الإنسان دون الإضمار؛ لأنه هو المذكور نفسه في قوله تعالى:(قُتِلَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ)، وللتّنبيه على ترابط الكلام حول ذلك الإنسان المعرض الذي تصدّى له النبي صلى الله عليه وسلم ومن سار على نهجه مازال السِّياق يتتابع حوله، وحول إثبات ما أنكره، وكان سببًا في إعراضه وكفره، وإنه هنا ينتقل إلى دليل أشد حسية في نفسه من الأوّل؛ لأنه قوته التي بها استمرار حياته، وقد يقاتِل من أجل الحصول عليها، وهو الإنسان المادي البحت الذي لا يؤمن إلا بما يحيط به وبحياته، فكان هذا الدّليل من أقوى الأدلّة في لفت نظره وعقله وحسه، وهو استدلال يقرِّب له صورة البعث في النبات الذي يشق الأرض، ليُعلن الحياة بعد سقيه بالماء، ثم يكون منه طعامه الذي هو سبب بقائه، وفي تلاقي الصّورتين التي ترسم بدقة خروج النبات من الأرض، وخروج المولود من بطن أمه، وسقي النبات بالماء وخلق الإنسان من ماء مهين، ونهاية هذا النبات بالحصاد ونهاية الإنسان بالموت ثم بعثه بعد الموت "وفي جميع تلك الأطوار تمثيل لإحياء الأجساد المستقرة في الأرض، فقد يكون هذا التمثيل في مجرد الهيئة الحاصلة بإحياء الأجساد، وقد يكون تمثيلًا في جميع تلك الأطوار بأن تخرج الأجساد من الأرض كخروج النبات"[32]، وهنا يلاحَظ تسلسل الكلام والسِّياق في إثبات البعث للمنكر، وقد أُسندت الأفعال:(صَبَبۡنَا، فَأَنۢبَتۡنَا)إلى ضمير المتكلم المعظّم نفسه سبحانه وتعالى؛ لأن الإيجاد والخلق بقدرته وحده، وهو القادر على الإحياء للناس بعد موتهم، وهذا الدّليل فيه تحفيز وأمر ملزم للإنسان على التأمّل في طعامه الذي يعايشه صباحًا ومساءً، ليجد الجواب واضحًا بيّنًا، وكانت "الفاء" رابطة للكلام بعضه ببعض ربطت الدليل الثاني بالأول؛ لتوضح الانتقال بعد دليل خلْق الإنسان من نطفة، إلى دليل خلق طعامه وتدبيره وهو أشد حسية له، ثم جاء بعد قوله تعالى:(فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ)قولُه: (أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا)،وعلّة عدم العطف بين الجملتين لما بينهما من كمال الاتصال، فالثانية بدل اشتمال من الأولى، فالنظر والتأمل في الطعام، ومعرفة كيفية وجوده يشتمل على معنى (أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا)، ولو عُطفت لاقتضى العطف المغايرة، ثم يتواصل الكلام بحروف العطف في بيان كيفية حصول هذا الطعام، ووصوله بفضل الله للإنسان، بما يثبت كيفية البعث، ومنّة الله وفضله على الإنسان، وترابط الكلام يظهر من أن الله سبحانه من بداية مقاطع السُّورة ينعى على الكفار المعرضين عن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم بالتعجب من كفرهم وتكبرهم، فوضح حقارتهم بتذكيرهم بأصل خلقتهم من نطفة حقيرة، وكيف أنهم في أشد الحاجة إليه في كل مراحل خلقهم، وبعد خروجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، ثم حياتهم ومماتهم، وقدرته سبحانه في بعثهم من قبورهم للحياة والحساب، ثم ضرب لهم دليلًا في صنع طعامهم يقرب لهم كيفية بعثهم "ولما كان المقصود النظر إلى صنائع الله تعالى فيه، وكانت أفعال الإنسان وأقواله في تكذيبه بالبعث أفعال من ينكر ذلك الصنع، قال سبحانه مفصّلًا لما يشترك علمه الخاص والعام من صنائعه في الطعام، مؤكدًا تنبيهًا على أن التّكذيب بالبعث يستلزم التّكذيب بإبداع النبات وإعادته"[33].

إنّ دقة النّظم البلاغي في إيصال صورة كيفية البعث في ذهن المنكر يكمن في ربط خلق الإنسان من الماء، وخلق طعامه من الماء، وفي النظر في تطور خلق الإنسان في بطن أمه حتي يخرج مولودًا كاملًا، ثم ينظر في صب الماء على الأرض الميتة، فتخرج البذرة من باطنها نبتة تكبر حتى تستوي، فتؤخذ منها الثمار، ثم تحصد وتنتهي، ويعقبها غيرها من النباتات التي يحييها الله من جديد، وهكذا الإنسان يعيش ويموت، وتعقبه ذريته وهي مقارنة تقرب الصُّورة وتوضحها، دون تفصيل في مراحل خلق الإنسان، أوفي عملية سوق الماء إلى الأرض وطرقها، وهو المناسب في هذا المقام لهذا المنكر المستغني في بدايات الدعوة، والتي يحتاج فيها إلى براهين حسيّة موجزة في دفقات سريعة مقنعة وملامسة لحاله، ثم استمر النّظم والسِّياق في تعداد الأنواع التي يكون منها الإنسان طعامه عبر الوصل بين الجمل، فذكر الحَبّ أوّلًا لكونه أساسَ طعامه بما يشتمل عليه من أنواع متعددة "فالحَب كل ما يذكر من الحبوب"[34]، فكان من البلاغة سرد هذه النعم ومجيئها منكرة لتعميم أجناسها لكثرتها وحصرها، وفي ذلك امتنان عظيم وجاء هذا الامتنان في ختام المقطع، لبيان فضل الله في استمرار حياة الإنسان وبقائه عن طريق طعامه المودع في الأرض، حيث عمق صورة وكيفية البعث بحياة الأرض بالماء، ثم انشقاقها بالنّبات، وهو طعام الإنسان، فقدّم ذكر الحَب؛ لأنه أساس طعامه وقوام صلبه، ثم عُطف عليه ما يتفكّه به زيادة في إمتاعه وترفيهه، ثم ذكر تعالى ما يُغني الحيوان من المرعى معطوفًا على الفاكهة، وهذا العطف للمغايرة يُبيّن بلاغة مدى إكرام الله تعالى للإنسان وما تميز به في طعامه، وما سخره للحيوان من غذاء مختلف سيعود في المآل إلى إتمام طعام الإنسان من اللحوم، ثم ختم المقطع بقوله تعالى:(مَّتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ)في سياق المنّة من الله تعالى على الإنسان في تيسير طعامه، جاءت ختامًا معمّقًا محدودية زمن المتاع، لتتأكد النتيجة التي تبيّنها السُّورة منذ البداية، ألا وهي حقيقة البعث والحياة بعد الموت، فالمتاع "هو ما ينتفع به زمنًا ثم ينقطع"[35].

وهكذا يُختم المقطع بتأكيد هذه القضية ليسلمنا إلى النتيجة الحتمية لقيام وحصول اليوم الآخر في ختام السُّورة الكريمة.

المقطع الثالث: مشهد القيامة ومصير المكذبين والمؤمنين من الآية (33 إلى 42).

قال تعالى: (فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ٣٣ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧ وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ ٣٨ ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ ٣٩ وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ ٤٠ تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ ٤١ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ٤٢).جاء الختام هنا معلنًا النتيجة والعاقبة في يوم الحساب، لكل ما عرض في السُّورة من إعراض وتكبر واستغناء من قبل زعماء قريش المكذبين، وما عرض من حالة مؤمن جاء يسعى وهو يخشى، هو وكل من سيؤمن له مصيره الذي يستحقه، ومصير الخاسرين العذاب.

ومن هنا نلحظ ملاحظتين: الأولى الربط بين بداية هذا المقطع بختام المقطع السابق نجدها في الفاء التي أفادت الترتيب، تُرتّب ما بعدها على ما يشعر به لفظ المتاع من سرعة زوال هاتيك النعم وقرب اضمحلالها(36)، ثم يعقُب ذلك القيامة، وبعْث الناس من قبورهم للحساب، وكل ذلك تقرير لليوم الآخر في عقول المنكرين، والثانية في عطف المشهد كله على ما سبقه من مقاطع بالفاء العاطفة، لتعود بنا إلى بيان نتيجة التعنت الحاصل من المستغنين، وقد أحسن الإمام الطاهر بن عاشور في ربط هذا المقطع بما سبقه من مقاطع، حيث يرى أن الفاء للتفريع على اللوم والتوبيخ في قوله تعالى:(قُتِلَ

ٱلۡإِنسَٰنُ مَآ أَكۡفَرَهُۥ)، وما تبعه من الاستدلال على المشركين المنكرين للبعث في قوله عزّ وجل:(مِنۡ أَيِّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥ)إلى قوله:(أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا)ففرّع على ذلك إنذار بيوم الجزاء[37].

وبهذا نلحظ مناسبة هذا المقطع لمقاطع السُّورة، وكيف ختم به لبيان مصير المصدِّق والمكذّب، فيرتد التلاحم مع أجزاء السُّورة، لتقرير الحساب والبعث في عقول المنكرين ببيان الهلع الحاصل في ذلك اليوم، وجعلت الجمل في البيان مفصولة لشبه كمال الاتصال عن طريق إثارة وقدح السؤال في العقول، لتأتي الإجابات متتابعة متدفقة كتدفق هول اليوم ورعبه حيث يتساءل المتلقي بعد قوله تعالى:(فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ) عن الصاخة التي شخِّصت بالمجيء لتكون محسوسة "وهي اسم من أسماء يوم القيامة وهي صيحتها، سُميت بذلك؛ لأنها تصخّ الأسماع، أي تبالغ في إسماعها حتى تكاد تصمها"[38]، يتساءل عن مجيء هذه الصاخة، وهذا الدوي المرعب ماذا سيكون بعده، فيأتي الجواب مصورًا حالة الإنسان المرعوب يفر من أشد الناس قربًا منه (يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ٣٧). إنها تعيدنا إلى ذلك الإنسان المنكر الذي تصدّى له الرسول صلى الله عليه وسلم، فأعرض واستغنى كيف ستكون صورته في ذلك اليوم إنها صورة المرعوب الفارّ الذي انشغل بنفسه، وصور في حالة المستغني تهكمًا به حيث استعار كلمة (يُغۡنِيهِ)للمنشغل، وهي كلمة تعني الغنى الذي فيه اكتفاء وسعادة بالمال، ولكنها هنا استعيرت للانشغال للتهكم؛ لأنه انشغال بما يصيب المرء من هلع وخوف وسوء مصير، وبهذا نجد تلاحم النظم في اختيار الكلمة التي تعود بنا إلى صلف المشركين واستغنائهم في عتوٍّ وتهكمٍ في المقطع الأول، وهنا يكون مصيرهم الأليم، يتهكّم بهم وهم في حسرة، قد انشغلوا بأنفسهم ومصيرهم، وقد صوَّرت بلاغة العطف بالواو بين هذه المفردات درجة الرعب والفرار من الأقارب؛ حيث يرى بعض المفسرين أن في ذلك ترقيًا من الأبعد إلى ما هو أقرب منه[39]، حيث رتّبت أصناف القرابة في الآية حسب ذلك تدرجًا في تهويل الفزع في ذلك اليوم ولم يلحظ بيان للسر في ذلك، ويرى بعض الباحثين المحدثين، أنه غاب عن المفسرين مغزى العطف هنا حيث اقتضى "إعجاز البيان القرآني أن يبدأ بالأخ فالوالدين، فالزوجة، فالبنين، وهو مبني بهذا النّسق الخاص على معنى معين، وهو معنى التّرقي في الحب؛ لأنه يناسب فكرة الفرار والنكوص عن مساعدة أقرب الأقربين انشغالًا بالنفس"[40]، ولكني ألمح أن المقام في ذلك اليوم العظيم يبدأ بالمحاسبة في كل شيء منذ المرحلة الأولى في الحياة، كما حوسب في قبره منذ بداية حياته، فبدأ بذكر الفرار من أسرته الأولى، حيث بدأ بالأخ فهو الملاصق له من زمن الصبا ويخشى من تبعاته، ويواصل إلى ما هو أشد في أسرته الأولى، وهو: الأم والأب فهماأكثر قربًا لأبنائهم،ثم يترقّى إلى أسرته الثانية في مراحل عمره الثاني والأخير، فبدأ بزوجته وعطف عليها الأبناء، ليتبيّن التّرقي من المرحلة الأولى من الحياة التي فر منها، ثم مرحلته الثانية يشتدّ فرارًا منها والله أعلم.

فبلاغة الوصل بيَّنت الرعب الشديد الذي ينتاب المفلسين، ويجعلهم يفرون ممن هم أشد منهم قربة خوفًا من مطالبتهم؛لما بينهم من التّبعات والمظالم، وصورت الانشغال بالنّفس عن الآخرين، لشدّة الهول والفزع، وهنا نلحظ أن الخاتمة جاءت مقرِّرة لليوم الآخر، حيث ذكر اليوم مرتين عند ذكر مصير المؤمنين المقبلين في:(وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ)وعند ذكر حال المعرضين المكذبين (وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ) لم يكتفِ به مع الفئة الأولى، بل ذكره مع الفئة الثانية، ليقرِّر ثبوته ومحاسبة الجميع فيه، وفي ذلك التفاتٌ إلى حال المنكرين الذين تصدّى لهم الرسول صلى الله

عليه وسلم، فأعرضوا إنكارًا منهم لهذا اليوم، وحالة المؤمن المصدق، وكيف سيكون مصيره وتكريمه، وقد ركّز البيان القرآني على إبراز صورة الوجوه؛ لأنها محل ترجمان سرور القلوب أو حزنه وكمده، وكأن عبوس وجوه المكذبين المستغنين يردّ على حالهم وقد استغنوا بحياتهم الدنيا فرحين بها غير متقبلين للحق، وكيف تغيّر الحال بهم، فعبَست وجوههم ولفَّتها الغبرة والقترة، وكيف تغيّر حال من عبَس في وجهه ليصبح مع المؤمنين مسفرًا وجهه ضاحكًا مستبشرًا، وكل هذا التصوير يقرر اليوم الآخر، وتتلاقى المعاني من أوّل السُّورة إلى اختتامها، ويلاحَظ عرض صورة وجوه المصدِّقين المؤمنين وصفاتهم متتابعة عبر بلاغة الفصل لكمالِ الاتصال من أجل التأكيد، فالصفات:(مُّسۡفِرَةٞ)و(ضَاحِكَةٞ)و (مُّسۡتَبۡشِرَةٞ)متتابعة في السُّورة، وقد أفادت التأكيد لتوضيح صورة شدّة نور هذه الوجوه وسطوعها، وقد جاءت على الحقيقة لا مجاز فيها تدل على الثبوت والدوام، بما أفاده مجيء الصفات على اسم الفاعل، تقابلها وجوه المكذّبين معطوفة عليها بحرف الواو الدال على المغايرة، للمقابلة بين الحالتين وجوه بيضاء ووجوه مغْبرَّة قد علاها الغبار والسواد ترهقها القترة، حيث أفاد الفعل المضارع استمرار هذه القترة وتجدّدها عليهم، وتقديم المفعول على الفاعل لتأكيد هذه الصُّورة، ثم اختتم المقطع بقوله تعالى:(أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ)يشير إلى المكذبين باسم الإشارة للبعيد؛ لبُعدهم عن رحمة الله تقريرًا لحالتهم وتشهيرًا بهم، وأكّد ذلك بضمير الفصل بين المبتدأ والخبر مبينًا خصوصيتهم بهذه الصفة دون غيرهم، حيث يلتفت إلى المكذّبين الذين تصدّى لهم الرسول، ليختم بتقرير مصيرهم، وبيان صفاتهم التي بلغوا فيها الخصوصية "ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه بسبب اقترانهم بالكفر والفجور"[41].

وهذا الختام برز من خلال بلاغة الفصل لهذه الجملة عن سابقتها وكأنّ سائلًا يسأل كيف وصلوا لهذا الحال في ذلك اليوم؟ فجاء الجواب(أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ)مبينًا استحقاقهم لهذا المصير المخزي بسب كفرهم، فكانت الخاتمة مختصرة تحكي قصة النهاية المؤلمة.

المحور الثاني: وحدة السِّياق في التلاؤم ما بين مطلع السُّورة وموضوعها.

بدأ مطلع السُّورة بعتاب لطيف للنبي صلى الله عليه وسلم في تصدّيه للمعرضين المكذبين لليوم الآخر، وتوليه عن المقبل إلى الدعوة، واهتم المطلع بتزكية هذا القابل للخشية بالتخويف باليوم الآخر، وتم في المقابل التحقير من شأن المعرضين المستغنين عن الدعوة، بسبب إنكارهم لليوم الآخر، ثم التفت السِّياق إليهم يفند إنكارهم للبعث بإقامة الأدلة والبراهين على قدرة الموجد في إحياء الخلق بعد موتهم، فبدأ بدليل خَلق الإنسان من نطفة، ثم بدليل إخراج النبات من الأرض الميتة، ومن هنا نلحظ أن السُّورة تتناسب في مطلعها مع موضوعها، وقضيتها الكبرى في إثبات الإيمان باليوم الآخر، ثم نجدها تتناسب مع سورة النازعات السابقة لها في ترتيب المصحف والمتأخرة عنها في وقت النزولالتي بدأت بالقسم بطوائف الملائكة على وقوع هذا اليوم وحصوله، وقد عرضتِالسُّورة اشتداد الكفار في إنكارهم وشدة محاجتهم في قولهم (يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ١٠ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ١١ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ 12) [النازعات: 10–12]، ولذلك ناسب افتتاحها بالقسم الذي خلت منه سورة عبَسالتي كانت تهتمّ منذ مقدمتها بمن أقبل على الدعوة إلى الله واليوم الآخر، مهما كانت منزلته، وكان في هذا المطلع توجيهٌ مباشرٌ لرسولالدّعوة، وتصحيح لفهم

مساراتها، وأنهليسعلى الرسول إلا البلاغ المبين، وهذه السُّورة الكريمة نزلت في بدايات الدّعوة، وكان إنكار المنكرين وحجاجهم في البداية لم يشتد ويحتدم كما هو في سورة النازعات التي نزلت بعد سورة عَبَسَ، ولذلك ناسَب فيها الابتداء بالقسم، ويلاحظ في سورة عَبَسَمن خلال سياقها قمّة الغضب الإلهي من كفر المنكرين من خلال التعجيب من كفرهم بالساعة مع وضوح الأدلة والبراهين في خَلق الإنسان، وفي تكوين طعامه، ورحمة المنعم بخلقه، نلحظ الاهتمام بهذا الموضوع في المطلع بإبراز نعم الله في إخراج الإنسان من بطن أمه إلى الحياة الدنيا، ثم تسهيل أمر عيشه وحياته، ثم إماتته وإقباره، ثم تكون المشيئة الإلهية بإعادته بعد الموت للحساب في يوم القيامة، وكل ذلك يصبُّ في تعاضد المطلع مع محور السُّورة الرئيس في تسلسل بديع وفي تدفق متتابع يؤثر في عقول وقلوب المنكرين.

المحور الثالث: وحدة السِّياق من خلال التّلاؤم بين مطلع السُّورة، وختامها.

أفتتح مطلع السُّورة بعتاب لطيف للنبي صلى الله عليه وسلم في توليه عن المقبل للدعوة وتصدّيه للمعرض المستغني في قوله تعالى:(عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤)، فكانت المقدمة مثيرة ولافتة في براعة استهلال، تهتم بأمر القابل للدعوة مع العتاب اللطيف لنبي الدعوة صلى الله عليه وسلم تلحظ في بلاغة الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، ثم ذكرت المقدمة في المقابل المعرض المستغني في قوله تعالى:(أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ 7)،فبيّنتْ اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الفئة، ولذلك اشتد العتاب هنا مع التحقير من شأن المكذبين عند الله، لكفرهم وعدم تقبلهم مع ما قدمه لهم النبي من اهتمام والتفات، فنجد المقدمة حفلت بالاهتمام بالمقبل إلى الدعوة، وأن الأولى أن ينصرف الاهتمام به دون من أعرض واستكبر، ولذلك نجد التلاحم بين المقدمة والخاتمة بذكر مصير الفريقين مصير من آمن ومنهم هذا المصدق، ومصير من كذب واستغنى ومنهم هؤلاء الكفرة، وقدّمَ مصير من آمن على مصير من كفر وفي ذلك متابعة في الاهتمام بشأن هذا المقبل، وكل من آمن بالله واليوم الآخر يقول الإمام البقاعي: "ولما ذكَرَ اليوم، قسم أهله إلى القسمين المقصودين بالتذكرة أول السُّورة"[42].

لقد جاءت خاتمة الصورة مُعمِّقة صورة المصير للمكذبين باليوم الآخر، وصورة المصدقين، وقد عطف الختام بالفاء التي ربطت النتيجة في الخاتمة بالمقدمة التي صوّرتِ المقبل والمعرض، وكيف كانت النّهاية المؤلمة للمكذبين، والنّهاية المفرحة للمؤمنين، وقد قورن بين الصورتين عن طريق العطف بالواو الدالة على المغايرة للمقابلة، فكانت المعاني والمناسبات تتقابل حول تقرير موضوع السُّورة ومحورها وقضيتها الكبرى،ثم ذيلت الخاتمة، بل السُّورة كلها بقوله تعالى:(أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ) لتأكيد استحقاقهم هذا المصير، ولترتدَّ وتعود وتشيرَ إلى أولئك المعرضين الذين سبق ذكرهم في مطلع السُّورة بأنهم قد جمعوا مع الكفر الفجور، ولتبيِّن بُعدهم عن الرحمة، وبُعد كل من سار على نهجهم في مصيرٍ مُخزٍ جمعوا فيه بين العذابوالذُّلوالتّذييل تأكيدًا وتقريرًا.

الخاتمة:

بَعد هذا العرض المفصّل لأسرار الوحدة في السِّياق القرآني ممثلًا في سورة عَبَسَ يصِل البحث إلى النّتائج الآتية:

1- أنّ تلاؤم سورة عَبَسَ كان من أولها إلى آخرها، وتماسكها نحو موضوعها وقضيتها الكبرى هو تقرير وإثبات لليوم الآخر.

2- غلب على السُّورة في مقدمتها الأسلوب الخبري في تقرير الأحداث وتأكيدها.

3- إيجاز مقاطع السُّورة وتدفقها قوة تتلاءم مع موضوعها، وإنكار المنكرين، ومشاهد يوم القيامة.

4- التّناسب بين مقاطع السُّورة وموضوعها مقْطع يُهيئ للذي يليه في ترابط معنوي تظهره أساليب البيان من وصلٍ وفصلٍ.

5- مناسبة المقدمة للخاتمة، ومناسبتها لموضوع السُّورة الرئيس يجعلها في نسيج متلاحم وعلاقات تترابط من أول السُّورة إلى ختامها، ويُبيِّن بلاغة النّظم القرآني وإعجازه البديع.

6- إمعان النّظر لنزولالسُّورة في بداية الدّعوة يكشف عن أسرارها في الإيجاز في مراحل خَلق الإنسان؛ لذا لم تركّز إلّا على إيجاده.

7- في قوله تعالى:(مِن نُّطْفَةٍ)بيانٌ للمنكرين بفقرات موجزة أدلّة البعث والإيجاد، وهذا يتوافق مع حال المنكر في البداية، ولما اشتد الإنكار في السُّور التي نزلت بعدها فَصّل في مشاهدخَلق الإنسان، ومراحله بما يتلاءم مع أحوال المنكرين.

Abstract

Secrets of context unity of in Surat Abasa

By Muhammad bin Saleh Al-Alyani

This study aims to spot the mysteries of the Qur'anic structure in Surat Abasa by examining the contextual unity, coherence between verses. The study used the with descriptive approach to analyze the interpreters' opinions on the Qur'anic Verses, and to clarify the miracles and eloquence contained therein. The study runs into an introduction, a preface, three main sections, and aconclusion. The findings revealed that Surah Abasa exhibits a cohesive structure from beginning to end, centered around its main theme, i.e., the affirmation of the Hereafter. The surah's sections are proportionate and interconnected, with each part logically leading to the next through meaningful links revealed through various rhetorical devices. The introductory sections employ a predominantly declarative style to assert and confirm events, while the concise and fluid structure of the surah enhances its thematic impact

Keywords: Composition, context, Sequence, Surat Abasa.

الهوامش

(1) يُنظر: لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط:1، 1410ه، (10 / 166)، والقاموس المحيط للفيروز آبادي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط:2، 1371ه، 1952م، (256/3)، ومعجم مقاييس اللغة لابن فارس، دار الجيل، بيروت (د.ت)، (117/3).

(2) المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425هـ، 2004م، (ص464).

(3) نظرية السِّياق القرآني: دراسة تأصيلية دلالية نقدية، المثنى عبدالفتاح محمود، دار وائل للنشر عمان الأردن، ط:1، 2008م، (ص15).

(4) الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، حسن محمد باجودة، مطبوعات تهامة، جدة،1403ه، (ص 35).

(5) البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد عبد الله الزركشي، دار الفكر ط:3، 1400ه، 1980م، (256/1).

(6) ينظر: الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، بيروت– لبنان، 1408ه، 1988م، (172/1).

(7) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط:2، 2003م، (323/8).

(8) البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ط:1، 1423هـ، 2002م، (594/8).

(9) المحرر الوجيز، للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط:1، 1413ه، 1993م، (436/5).

(10) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1393هـ، 1984م، (101/30).

(11) أسباب نزول القرآن، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، دار الميمان، الرياض، ط:1، 2005م، (ص707).

(12) نظم الدرر (323/8).

(13) التحرير والتنوير(30/ 102).

(14) المرجع السابق (30/ 103).

(15) المرجع السابق (30/ 103).

(16) التحرير والتنوير (30/104– 105).

(17) المرجع السابق (30/ 105).

(18) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار إحياء التراث العربي، بيروت ط:1، د. ت، (66/30)، والجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 5، 1417ه، 1996م، (140/19)

(19) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:2، 2005م، (242/15).

(20) التحرير والتنوير (107/30).

(21) تفسير الكشاف، لأبي القاسم جار الله الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:1، 1415هـ، 1995م، (689/4).

(22) تفسير الطبري (76/30)، وينظر: المحرر الوجيز (437/5)، وتفسير القرآن العظيم للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار عالم الكتب، الرياض ط:1، 1425، 2004م، (246/14)، والتفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط:4، 1422ه، 2001م، (55/11).

(23) التحرير والتنوير (120/30).

(24) المرجع السابق (120/30).

(25) الكشاف (4/ 689).

(26) التحرير والتنوير (122/30).

(27) المرجع السابق (123/30).

(28) المرجع السابق (123/30).

(29) تفسير الطبري (76/30)، وينظر: المحرر الوجيز (437/5).

(30) تفسير الطبري (76/30).

(31) التحرير والتنوير (130/30).

(32) المرجع السابق (130/30).

(33) نظم الدرر (330/8).

(34) تفسير ابن كثير(252/14).

(35) التحرير والتنوير (134/30).

(36) روح المعاني (25/15).

(37) التحرير والتنوير(134/30).

(38) تفسير ابن كثير(254/14).

(39) ينظر الكشاف (692/4)، روح المعاني (251/15).

(40) بلاغة القرآن الكريم دراسة أسلوبيه، عفت الشرقاوي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981م، (ص108).

(41)الكشاف (692/4).

(42) نظم الدرر (330/8).

المصادر والمراجع

*** القرآن الكريم.**

- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1408ه، 1988م.
- أسباب نزول القرآن، لأبي الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، دارالميمان، الرياض، ط:1، 2005م.
- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان ط:1، 1423هـ، 2002م.

- البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين محمد عبدالله الزركشي، دار الفكر ط:3، 1400ه، 1980م.
- بلاغة القرآن الكريم دراسة أسلوبيه، عفت الشرقاوي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1981م.
- التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، 1393هـ، 1984م.
- تفسير القرآن العظيم للحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير، دار عالم الكتب، الرياض ط:1، 1425ه، 2004م.
- التفسير الكبير للإمام الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط:4، 1422ه، 2001م.
- تفسير الكشاف، لأبي القاسم جار الله الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط:1، 1415هـ، 1995م.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، دار إحياء التراث العربي،بيروت ط:1، د.ت.
- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: 5، 1417ه، 1996م.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للعلامة الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط:2، 2005م.
- القاموس المحيط للفيروز آبادي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط:2، 1371ه، 1952م.
- لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، ط:1، 1410ه.
- المحرر الوجيز، للقاضي أبي محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط:1، 1413ه- 1993م.
- المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، ط4، 1425هـ، 2004م.
- معجم مقاييس اللغة لابن فارس، دار الجيل، بيروت، د.ت.
- نظرية السِّياق القرآني: دراسة تأصيلية دلالية نقدية، المثنى عبدالفتاح محمود،دار وائل للنشر عمان الأردن، ط:1، 2008م.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان ط:2، 2003م.
- الوحدة الموضوعية في سورة يوسف، حسن محمد باجودة، مطبوعات تهامة، جدة، 1403ه.